صورة الكرك في الرسالة الفنية في العصر المملوكي

الدكتور سلامة هليل الغريب*

الملخَّص

هَدَفَ هذا البحث إلى بيان أهميّة مملكة الكرك في العهد المملوكي، من خلال الرِّسالة الفنيّة التي تصدر عن ديوان الإنشاء، مستعيناً بما كتبه المؤرِّخون والجغرافيُّون والرَّحالة المعاصرون لتلك الأحداث، ولذا جاءت مصادر الدِّراسة ممَّن عاصروا الأحداث وعاينوها، وسيظهر البحث الاهتمام والعناية بهذه المملكة من قبل السَّلاطين والأُمراء في النواحي العسكريّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة.

كما هَدَفَ البحث إلى بيان صورة الكرك في الرسالة الفنيّة، مبيِّناً مكانتها من النواحي الوجدانيّة في سيرة بعض السَّلاطين كالنَّاصر محمَّد، وابنه النَّاصر أحمد اللَّذين عاشا فيها ردحاً من الزَّمن.

كما يلفت هذا البحث النَّظر إلى أهميّة الرِّسالة الفنيّة في توضيح صورة المماليك في ذلك العهد، والتزام الأدباء نحو القضايا العامّة وإبرازها في أعمالهم الأدبيّة.

* قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب- جامعة الطفيلة التقنية - الأردن

تقديم:

الكرك من الممالك التي احتلَّت حيِّزاً في كتب الجغـرافيين الـذين وصـفوا المكان وأعجبوا به، وهؤلاء الواصفون والمعجبون كُثر، لكن ينبغي النظر فيما كتبـه رجال تلك الحقبة؛ فقد ذكر الملك المؤيَّد الكرك، قائلاً: "وهو بلد مشهور لـه حـصن عالي المكان، وهو أحد المعاقل بالشَّام التي لا ترام، وعلى بعض مرحلة منه مؤتـة، وبها قبر جعفر الطيَّار وأصحابه – رضي الله عنهم- وتحت الكـرك وادٍ فيـه حمَّـام وبساتين كثيرة وفواكهها مفضَّلة..." [1].

كما أُعجب بهذا البلد صاحب الرَّوض المعطار، أُعجب بالمكـان والإنـسان معاً، فذكر أنَّ حصن الكرك "من أعظم حصون النـصارى، معتـرض فـي طريـق الحجاز، وهو من القدس على مسافة يوم أو أقلّ"[2].

فالقارئ يشعر بأهميّة المكان، إذْ يتوسَّط الكرك بين القبلتين، فعن يمينه الحرم الشريف، وعن شماله القدس الشريف، وتلك مكانة عظيمة، كما أَشاد الحميري بأهـل ذلك المكان قائلاً: "وهي من الأمن على غاية...، وأهل الحـرب مـشتغلون بحـربهم والنَّاس في عافية، والدُّنيا لمن غلب، هذه سيرة أهل هذه البلاد في بلادهم"[3].

فللمتلقِّي أنْ يتأمّل هذا النَّص، الذي ينطوي على معانٍ كثيرة، فالبلد آمن مـع أنَّ الحرب دائرة، والنَّاس في عافية في هذا المكـان؛ لأنَّهـم يتركـون الـصِّراعات والمشاركة فيها، فهم مسالمون بطبعهم كما يصفهم النَّص.

---

(1) أبو الفداء، الملك المؤيّد إسماعيل بن علي (732هـ/1331م): تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص246.

(2) الحميري، محمَّد عبد المنعم: الرَّوض المعطار في خبر الأقطار، حقَّقه الدكتور إحسان عبَّـاس، مكتبة لبنان، ص202.

(3) المصدر نفسه، ص202.

كما أعجب الرحَّالة ابن بطوطة بهذا المكان ووصفه في رحلته، قائلاً: "وهو من أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها ويسمَّى بحصن الغراب، والوادي يطيف به من جميع جهاته، وله باب واحد قد نُحِتَ المدخل إليه في الحجر الصَّلد، ومدخل دهليزه كذلك، وبهذا الحصن يتحصَّن الملوك وإليه يلجؤون في النَّوائب"(1).

فالنَّاظر في هذا الاقتباس يستشعر عظمة المكان وحصانته، وكذلك يؤمن بأهميّة الكرك التي وجدت الاهتمام من جانب السلاطين والأُمراء وكافلي الملك.

كما وصف العمريّ الكرك مضيفاً إليها الشوبك، قائلاً: "كرك الشوبك حدّه من القبلة عقبة الصوَّان، ومن الشرق بلاد البلقاء، ومن الشام بحيرة سدون وهي المعروفة بالمنتنة وبحيرة لوط، ومن الغرب تيه بني إسرائيل، والكرك حصن الإسلام ومعقله والسَّلام، بناه الملك العادل بن أيُّوب وشيَّد بناءه، ووسَّع فناءه...، ولم تزل الملوك تعدّه لمخاوفها، وتدَّخر به أموالها، وتخلّف فيه أبناءها"(2).

وفي هذه العبارات ما فيها من جماليَّات هذا المكان، فالكرك كما يصفه العمري أديب عصره، ملجأ للملوك وعصمة أمرها، كما يعدُّ خزنةً مركزيةً وخزانة لحفظ الأموال، والأهم من ذلك تُعدُّ الكرك مهداً، ومدرسة تربوية وجامعة معاً لأبناء السَّلاطين من أجل تعلُّم القيم العربيّة، والتدريب على أعمال الصَّيد والفروسيّة.

(1) ابن بطوطة، شمس الدِّين أبو عبدالله اللواتي (779هـ/1377م): رحلة ابن بطوطة، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، 1386هـ/1967م، ص67.

(2) العمري، أحمد بن يحيى (749هـ/1348م): التعريف بالمصطلح الشَّريف، تحقيق ودراسة د. سمير الدروبي، ط1، (1413هـ/1992م)، منشورات جامعة مؤتة، ص262.

والحقيقة أنَّ وصف الكرك في كتب الجغرافيين والمؤرِّخين والرحَّالة في العصر المملوكي كثيرٌ، والإحاطة به ضرب من المحال*، والذي يهم البحث وصفها الأدبيّ في الرِّسالة الفنيّة ربيبة ديوان الإنشاء المملوكي، فقد جاء في وصفها من رسالة تقليد:

"وهي التي قعدت من الجبال على مفارقها، واتَّصلت من النُّجوم بعلائقها، وتحدَّرت الغمائم من ذيولها، وطفت على السَّماء وطافت على الكواكب فجرت المجرَّة من سيولها، وكان الكرك المحروس هو المُراد، ومدينته التي لم يُخلق مثلها في البلاد، وقلعته تتشكَّى الرِّياح لها طلوع وادٍ ونزول وادٍ"(1).

والحقيقة أنَّ المتلقِّي لهذا الوصف الأدبي يدرك تماماً مدى الإعجاب بهذا المكان، كما يدرك مدى دقّة الوصف وإصابة التشبيه، ويستشعر عظمة المكان وقداسته، فالصورة التي يشاهدها المتلقِّي مرتفعة كلَّها تدلُّ على العلويَّات من الأشياء، فالمكوّن الأساسي لهذه اللوحة مفارق الجبال، والنُّجوم، والغمام، والسَّماء، والكواكب، والمجرَّة، فكل هذه المكوّنات تآزرت في رسم صورة جميلة لهذه المدينة، كما أردف الكاتب معجباً بهذه المدينة متناصَّاً مع القرآن الكريم في خبر مدينة إرم.

---

* "ومن جند الكرك: اللجون والحسا والأزرق والسَّلط، ووادي موسى...، ومدينة عمَّان التي لم تبقَ إلاَّ دمنتها، وعملها البلقاء، وحصن الكرك خزانة الأتراك ومعقلهم".

- الدمشقي، شيخ الربوة محمَّد بن أبي طالب الأنصاري، (727هـ/1327م): نخبة الدَّهر في عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م، ص281.

- الخطيمي، أحمد: بلدانيات الأردن في كتب الرحَّالة والجغرافيين، ط1، 1427هـ/2006م، ص544-555.

(1) القلقشندي، أحمد بن علي (821هـ/1418م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تعليق محمَّد حسين شمس الدِّين، دار الكتب العلمية، بيروت، ج12/ ص220.

ومن رسالة تقليد أخرى جاء الكاتب مُشيداً بحصن الكرك، قـائلاً: "حـصن انعقد الإجماع على انقطاع قرينه، وامتناع نظيره فيما خصَّه الله به من تحصينه، فهـو فرد الدَّهر العزيز مثاله، البعيد مناله، المستكنّة في ضمائر الأودية الغوامض بقعتـه، المستجنّة بقلل الجبال الشواهق نقعته، السَّائر في أقطار الأرض صيته وسمعته"[1].

إنَّ جمالية المكان تتجلّى في هذا الوصف، كما أنَّ شعرية الـنصّ المقتـبس تدعو إلى تحليله ومقارنته بالنص المقتبس السَّابق، فالـصورة أو اللوحـة المرسـومة للنص السَّابق كانت علويّة مرتفعة، أمَّا هذا النص فالغرض منه التحصين؛ ولهذا نرى كاتبه ينعم في رسم لوحة نادرة الوجود، فالمكان لا مثيل له، ولا نظير، فهو فرد الدَّهر وبيت القصيد، ولا شكَّ في أنَّ عبارة "انعقد الإجماع" تدلّ على فكر السياسة السَّائد في عصرهم عند مبايعة الخليفة أو السلطان، وهذا يعطي الشرعيّة للمبايع، ولذا فالكرك لا يدانيه حصن في الوجود، أمَّا اللوحة التي رسمها الكاتب فلا تكاد تظهر للمشاهد، فهي في ضمائر الأودية الغوامض، وهي مستجنّة بقلل الجبال الشواهق، فـالمتلقِّي يـدرك مدى التحصين من خلال هذا الوصف، فهي في ضـمائر الأوديـة، وهـذه الأوديـة غامضة، وهي كذلك متدرّعة بالجبال فلا تكاد تُرى.

وعند النظر في اللوحتين ترى فرقاً في مكوِّنات الصورة، فـالأولى علويّـة؛ لأنَّ كاتب النص فُتن بالمكان من نواحي العلوّ والرفعة والكرامة، في حـين نـرى أنَّ مكوِّنات الصورة في اللوحة الثانية باطنية كالضمائر، والأودية، والمستجنّة، والدروع؛ لأنَّ الكاتب يريد بيان أهميّة المكان من النواحي التحصينيّة.

ومهما يكن، فإنَّ وصف الكرك في الرسالة الفنيّة يعطـي المكـان أهميـة، ويشعر المتلقِّي بأهميَّته وعظمته؛ ذلك أنَّ المؤرِّخ يصف من الخارج، في حين الأديب يضيف إلى الخارج دفء الداخل.

(1) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، مصدر سابق، ج12، ص217.

الكرك مهد التربية وميدان الفروسيّة:

تبوّأت الكرك في العصر المملوكي مكانة عليّة في وجدان السَّلاطين المماليك وأمرائهم، وهذه المكانة جعلتهم يودعون فيها أبناءهم صغاراً؛ لكي يتعلّموا الفروسية والصيد وينشؤوا نشأة سليمة.

فذكر الصَّفدي أنَّ النَّاصر محمَّد بن قلاوون بعث ولده أحمد في أوّل صباه إلى الكرك، وجهَّز إليه أخويه إبراهيم وأبا بكر المنصور، فأقاموا بها إلى أن ترعرعوا وطلبهم والدهم فأقام إبراهيم وأبو بكر، وعاد أحمد إلى الكرك[1]، كما تشير المصادر[2] كذلك إلى أنَّ النَّاصر بعث ابنه أنوك إلى الكرك صغيراً.

ومن الجدير ذكره، أنَّ النَّاصر محمَّد بن قلاوون، أُرسل إلى الكرك طفلاً أو عزل عن السلطة في أول مرة وهو صغير، فقد سيَّره الوصيّ* عليه الأمير المنصور لاجين، فعندما مَلَكَ المنصور لاجين جهَّز الملك النَّاصر محمَّد بن قلاوون إلى الكرك، وكان صغير السِّن، وقال: "لو علمت أنَّهم يخلّون المُلك لك والله تركته، ولكنَّهم ما يخلُّونه، وأنا مملوكك ومملوك والدك، أحفظ لك الملك، فأنت تروح إلى الكرك وتتخرَّج وتُدرّب وتجرِّب الأمور، وتعود إلى مُلكك...، وتوجّه السلطان وأقام بالكرك

(1) الصفدي، صلاح الدِّين خليل بن أيبك (764هـ/1362م): أعيان العصر وأعوان النصر، حقَّقه علي أبو زيد وآخرون، ط1، دار الفكر، دمشق، 1418هـ/1998م، ج1، ص370.

(2) المقريزي، أحمد بن علي (845هـ/1441م): السلوك لمعرفة دول الملوك، حقَّقه محمَّد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القسم الثاني، الجزء الثاني، ص355.

* "وكان كتبغا قد جهَّز النَّاصر إلى الكرك بعد أن حلف له أنَّه إذا ترعرع وترجَّل يفرغ له عن المملكة بشرط أن يعطيه مملكة الشام".

العسقلاني، أحمد بن حجر (852هـ/1448م): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حقَّقه محمَّد سيد جاد الحق، دار الكتب، ج4، ص262.

إلى أنْ قُتِل لاجين، فحلف للسلطان الملك النَّاصر جميع الأمراء، وأحضروه من الكرك وملَّكوه"[1].

وفي عبارة العمريّ من نصِّه المقتبس الآنف ذكره "ولم تزل الملوك تعدّه لمخاوفها وتدَّخر به أموالها وتخلف فيه أبناءها"[2]، ما يشير إلى هذه الحوادث من بعث الأبناء إلى الكرك من أجل تنشئتهم تنشئة سليمة في النواحي الفكريّة، والأدبية، والحربية، والاجتماعية، وهذا يؤيِّده كلام السلطان حسام الدين لاجين عندما بعث بالنَّاصر محمَّد إلى الكرك، ففي عبارة "تتخرَّح وتُدرَّب وتجرِّب الأُمور"[3] ما فيها من اعتماد الكرك مركزاً لإعداد الرِّجال في النواحي المختلفة، فالعبارة تشير إلى التدريب على فنون الصَّيد، والتمرين في ميدان الفروسيّة، وتعلّم القيم الاجتماعية المختلفة.

ولأهميّة هذه القضية وحساسيَّتها، اهتمَّ السلطان النَّاصر محمَّد بالكرك، وظهر هذا الاهتمام من خلال الرِّسالة الفنيّة التي تمثِّلها رسائل التقاليد التي من خلالها يكلّف نوَّاب السلطنة في الكرك، فمن رسالة تقليد نائب جاء ما يشير ويوثّق هذه القضية، فجاء: "وهي أرضٌ تمتّ بأنَّها لنا سكن، ونمّت مناقبها بما في قلوبنا من حبّ الوطن، واستقرَّت للمقامات العالية أولادنا – أعزَّهم الله بنصره- فانتقلت من يمين إلى يسار، وتقابلت بين شموس وأقمار، وجاد بها البحر على الأنهار"[4].

ومن الجدير ذكره أنَّ في هذا الوصف ما يجعل الكرك أهلاً لهذه المهمَّة، لا بل محطّ نظر القادة والسَّاسة في تنشئة أبنائهم، فالسلطان النَّاصر يشير إلى موطنه الكرك الذي حمى ظهره في زمن الخوف، كما يدين للكرك في تعليمه مناقب حب

(1) الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، مصدر سابق، ج5، ص79.
(2) العمري، المصطلح الشريف، مصدر سابق، ص262.
(3) الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، مصدر سابق، ج5، ص79.
(4) القلقشندي: صبح الأعشى، ج12، ص220.

الوطن، فقد تعلَّم الانتماء والتضحية منذ نعومة أظفاره في الكـرك، وحبّـه وانتمـاؤه للكرك دفعاه إلى بعث أبنائه تباعاً إليها من أجل أن يشبُّوا رجالاً فيها، فلا يخفى ما في هذا الاقتباس من مكانة عليّة للكرك، واهتمام بها، فهي مهد سلاطين المستقبل، وهـي معهدهم في اكتساب القيم وتعلُّم الآداب، وهي ميدان الفروسيّة وفنون الصَّيد.

وفي اقتباس آخر من رسالة تقليد نائب، جاءت وصية النَّاصر محمَّد: "وخدمة أولادنا، فلا تدع فيها ممكناً، واعلم بأنَّ خدمتهم وخدمتنا الشريفة سواء؛ لأنَّه لا فـرق بينهم وبيننا"[1].

ويظهر من هذا الاقتباس، مدى اهتمام النَّاصر بتربية أبنائه في هذا المكـان، فهو يوصي ذلك النَّائب بالعناية المستمرَّة بهؤلاء الأُمراء، ومراعاة أحوالهم، والحرص على تعلّمهم حُسن الأخلاق، ومعرفة من يعاشرون، ولذا فقد جاءت شكوى من نائـب الكرك ملكتمر السرجواني[2] تتضمَّن أنَّ أحمد خرج عن طوعه وكثر شـغفه بـشباب الكرك[3].

وظلَّ السلطان النَّاصر يؤكِّد الوصيّة تلو الأخرى في رسائل التقاليـد التـي تخصُّ نوَّاب الكرك، فمن رسالة تقليد جاء فيها: "وكنّا قد سلكنا بهذا الولد النَّبيل، سـنّة أبي الأنبياء إبراهيم الخليل، في ولده إسماعيل عليهما السَّلام التَّـام فـي كـل بكـرة

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، مصدر سابق، ج12، ص221.

(2) الأمير سيف الدين الحجازي الناصري، صهر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ولم يكن عنـد أستاذه الناصر أحد في منزلته ولا من يدانيه في علوّ مرتبته، قتل سنة(748هـ) . الصفدي : أعيـان العصر ، ج5 / 444 - 447

(3) ابن تغرّي بردي، جمال الدِّين أبو المحاسن يوسف (874هـ/1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصوَّرة عن نسخة دار الكتب المصرية، القاهرة، ج10، ص23.

وأصيل، حيث فارقه وأفرده، وتفقَّده في كل حين وتعهَّده، حتَّى شدَّ الله تعالى به عضده ورفع هو وأبوه قواعد البيت وأعانه لمَّا شيَّده"[1].

وفي هذا النص ما فيه من تفاؤل بصلاح هؤلاء الأبناء، فقد شبَّه النَّاصر محمَّد نفسه بأبي الأنبياء عليه السَّلام حينما ترك ابنه إسماعيل وأمّه في جزيرة العرب في وادٍ غير ذي زرع، ولكنَّه عليه السَّلام تعهَّده حتى شبَّ رجلاً، فكان من المرسلين، وبهذه القصة يذكِّر النَّاصر نائب الكرك بضرورة الاهتمام بأبنائه؛ لأنَّهم سيصبحون عضداً له وسلاطين للدولة بعده، فقد بنى المقارنة من جهتين، جهة مكانيّة، وهي بُعد مكان الأب عن أبنائه، ولا نشكُّ في قداسة المكان الأول ووحيه؛ وعليه فللمتلقِّي أنْ يقول بقداسة المكان الآخر من ناحية التشبيه، أمَّا الجهة الأخرى، فهي جهة روحيّة معنويّة: فإبراهيم الخليل – عليه السَّلام- يوحى إليه ومسدَّد بالوحي، بينما النَّاصر مجتهد قد يصيب وقد يخطئ؛ ولهذا حرص كل الحرص على أبنائه من خلال رعايتهم الدائمة عن طريق الأُمراء والنوَّاب.

ومهما يكن، فإنَّ هذه المقارنة لا يُراد منها إلاَّ الفأل الحسن، والاقتداء بالسِّيرة الحسنة، وتذكّر القصص النبويّة في رعاية الأبناء، إيماناً من السُّلطان بأهميّة المكان وسحره في تعليم المناقب الحسنة.

وظلَّت الكرك في وجدان السُّلطان النَّاصر محمَّد مكاناً وإنساناً، فقد قام بزيارتها مرَّات عدّة، ولقي فيها الترحيب والإعجاب، وكان يجزل العطاء لأهلها، وقد خصَّها بعنايته دون غيرها؛ لتكون مقاماً لأبنائه، وميداناً لتدريبهم على الفروسيّة وأعمال الصَّيد، وعهد إلى نائب السَّلطنة فيها بتربيتهم وتأديبهم[2].

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، ج12، ص224.

(2) غوانمة، يوسف: الكرك في عصرها الذهبي، مطبعة القيروان، عمَّان، 1428هـ/2007م، ص15.

واللاَّفت للنَّظر، أنَّ السُّلطان النَّاصر كان قد كتب رسالة تقليد كلَّف فيها ابنه النَّاصر أحمد بنيابة الكرك، وجاء في تلك الرِّسالة: "وأودعنا لديه ما أودعه الله تعالى لدينا: مملكةً مرتفعةً متَّسعةً ليرتفع محلّه ويتَّسع أمله ولا يضيق، وجمعنا له أطرافها لتكون لكلمته العليا بها الاجتماع من غير تفريق"[1].

ولا شكَّ أنَّ والده يشير إلى عظم الأمانة التي تقلَّدها ابنه من الحفاظ على مملكة الكرك، والعناية بتربية إخوته الصِّغار الذين يعيشون في كنفه في حصن الكرك.

وللمتلقِّي أن يدرك مدى إعجاب السُّلطان النَّاصر محمَّد بهذه المملكة ومدى حبّه لها، فالعبارات تكشف عن ذلك؛ فهي مملكة مرتفعة ومتَّسعة، وفي عبارة ليرتفع محلّه شاهدٌ على سمة الكتابة الفنيّة في عصرهم، ففيها ما يشير إلى استدعاء مصطلحات النحو وتوظيفها جرياً على أساليبهم الفنيّة.

ومهما يكن، فقد أصبح للكرك شأنٌ عظيم في عصر النَّاصر محمَّد، فقد جعلها قلعة يتحصَّن بها، ومستودعاً لأمواله وسلاحه، كما خصَّها دون غيرها من ممالك الشَّام ومصر باحتضان أبنائه ليشبّوا بها، فقد "وقع عليها اختياره دون غيرها من مدن الشَّام ومصر لتكون مقاماً لأبنائه، وميداناً لتدريبهم على الفروسيّة وأعمال الحرب والصَّيد"[2].

الأهمية العسكريّة والاقتصاديّة والدينيّة للكرك:

منحت جغرافيّة المكان الوعرة الكرك مكانة مهمّة في العصر المملوكي في النواحي العسكريّة والحربية، كما منحتها أهمية في النواحي الاقتصاديّة والخاصة بخزن الأموال ورعي الماشية، و كان لتوسُّطها بين القاهرة والدِّيار المقدَّسة الحجازيّة

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، ج12، ص223.

(2) غوانمة، يوسف: التاريخ السياسي لشرقي الأردن في العصر المملوكي الأول (المماليك البحرية)، دار الفكر، عمَّان، ط2، 1402هـ/1982م، ص195.

دورٌ في بروز أهميَّتها من النواحي الدينيّة، فقد كانت مركزاً لمرور الحجَّاج، وكانت كذلك حصناً يأوي إليه الخائفون في أوقات الشدّة.

ونظراً إلى هذه العوامل كلّها، ازداد اهتمام السَّلاطين بها، وأولوها عنايتهم، فقد جعل الظاهر بيبرس الكرك مخزناً وملجأً آمناً[1]، وهذا ما جعل ابن بطوطة يقول عنها: "وبهذا الحصن يتحصَّن الملوك وإليه يلجأون في النَّوائب، وله لجأ الملك النَّاصر لأنَّه ولي الملك وهو صغير السِّن"[2].

"وظلَّت الكرك مخزناً وملجأً لكلِّ السَّلاطين المماليك فيما بعد، ففيها يخزِّنون أموالهم وأسلحتهم، وإليها يلجأون عندما يشعرون بالخطر في القاهرة"[3].

ولهذه المكانة المهمّة أولى السُّلطان النَّاصر محمَّد الكرك عناية كبيرة في النَّواحي السياسيّة، فقد ذكر القلقشندي هذه المكانة قائلاً: "وربَّما ولي نيابة الكرك من هو جليل الرتبة رفيع القدر، من أولاد السُّلطان أو غيرهم، فتعظم النيابة بعظمه، ويُرفع قدرها بارتفاع قدره، وتكون مكاتبته وتقليده فوق ما تقدَّم، بحسب ما تقتضيه الحال من (الجناب) أو غيره"[4].

وفي هذا النَّص وثيقة تاريخيّة جليلة القدر، تبيِّن أهميّة الكرك في نواحٍ مختلفة، فقد تولَّى نيابتها السُّلطان النَّاصر أحمد قبل أن يصبح سلطاناً، وكتب له في هذا التقليد بالجناب العالي، وذكر القلقشندي كما أسلفنا، أنَّ هذه المدينة نالت من الاهتمام ما لم تنله غيرها، فلم يحفظ التاريخ أن تولَّى ابن سلطان نيابة أيّة مملكة غير الكرك، كمملكة حلب، أو دمشق، أو صفد، أو غزة، أو غيرها.

(1) غوانمة: الكرك في عصرها الذهبي، مرجع سابق، ص15.
(2) ابن بطوطة: الرحلة، مصدر سابق، ص67.
(3) غوانمة: الكرك في عصرها الذهبي، مرجع سابق، ص15.
(4) القلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، ج12، ص221.

والكرك تُعدُّ كذلك الحصن المنيع والقلعة الشمَّاء في وجه عاديات الزَّمن، فالملوك "تُعدُّه لمخاوفها،و تدَّخر به أموالها"[1]، وذكر القلقشندي مشيداً بهذا المكان، قائلاً: "واتَّخذها ملوك الإسلام حرزاً ولأموالهم كنزاً، ولم يزل الملوك يستخلفون بها أولادهم، ويعدُّنها لمخاوفهم"[2].

وتشير المصادر[3] إلى أنَّ السُّلطان المملوكي الظَّاهر بيبرس قد أرسل أمواله إلى الكرك بعد أن فتحها سنة 661هـ/1262م، فقد حمل إليها نفائس أمواله من الذهب والفضة، وبقيت الكرك مستودعاً للأموال المملوكية، وكان عصرها الذهبي من النواحي الاقتصادية عصر

السلطان أحمد بن محمَّد بن قلاوون، فقد نقل إليها "سائر الخيول الثمينة الجيِّدة التي في اصطبل السلطنة، وجميع البقر والغنم التي بالقلعة، وأخذ الذهب والدَّراهم وسائر الجواهر، وما في الخزائن"[4].

ومن خلال هذا النص المقتبس ندرك أهميّة الكرك عند السلاطين المماليك؛ خاصة النَّاصر أحمد، إذْ جعلها مستودع أمواله، ومرعى ماشيته، وميدان خيوله وفرسانه، وقد أنفق النَّاصر أحمد هذه الأموال والذخائر كلّها تأليفاً لقلوب المماليك[5] عند محاصرتهم إيَّاه في الكرك، فقد "أتلف فيها أموالاً كثيرة في النفقات على

(1) العمري: المصطلح الشريف، مصدر سابق، ص262.
(2) القلقشندي، صبح الأعشى، مصدر سابق، ج4، ص161.
(3) المقريزي: السلوك، ق2، ج1، ص492.
(4) الصفدي: أعيان العصر، ج1، ص373.
(5) البخيت، محمَّد عدنان: مملكة الكرك في العهد المملوكي، مطبعة السفير، الناشر وزارة الثقافة، عمَّان، 1430هـ/2009م، ص107-108.

المقاتلة"[1]، كما أنفق قسماً كبيراً على أهل الكرك[2]، وقد "أكثر السُّلطان من الإنعام على أهل الكرك حتى خرج عن الحدِّ"[3].

وإلى جانب كونها خزنةً مركزيّةً لأموال السَّلاطين المماليك، اتَّخذها السَّلاطين كذلك مخزناً لمحاصيل الحنطة والغلال، فقد شحنها السُّلطان الظاهر بيبرس "وكتب بحمل الغلال والذخائر والأصناف إليها"[4]، وفعل فعله السُّلطان المنصور قلاوون حمل إليها الغلال والذخائر، وممَّا يؤكِّد هذا الخبر، قول صاحب سيرته محيي الدِّين بن عبد الظاهر: "ووالَى مولانا السُّلطان البُرَد والمكاتبات بمهمَّات الكرك، وحمل الذخائر إليها من كل شيء، وكل صنف من الأصناف، والغلال، والأموال، والمواشي، والأسلحة، وكل ما يعمر خزائنها ويملأ كنائنها، ويحمي أكنافها، ويديم إسعافها"[5].

وذكر المقريزي الأهمية الاقتصادية للكرك في وقت المجاعات والشَّدائد، قائلاً: "وأقحطت بلاد القدس والسَّاحل ومدن الشَّام إلى حلب، فبلغت الغرارة[6] القمح إلى مائتي درهم وعشرين، والشعير بالنِّصف من ذلك، واللحم الرطل إلى عشرة

(1) ابن تغريّ بردي: النجوم، مصدر سابق، ج10، ص71.

(2) البخيت: مملكة الكرك، مرجع سابق، ص108.

(3) المقريزي: السلوك، ق3، ج2، ص604.

(4) عبد الظاهر، محيي الدين (692هـ/1292م): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، حقَّقه عبد العزيز الخويطر، ط1، الرياض، 1376هـ/1976م، ص164.

(5) عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، حقَّقه مراد كامل، ط1، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1381هـ/1961م، ص125.

(6) (الغرارة) وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه وهو أكبر من الجوالق (ج) غرائر، أنيس، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1392هـ/1972م، ج2/648

دراهم، والفاكهة إلى أربعة أمثالها، وكان ببلاد الكرك والشوبك وبلاد السَّاحل لما يرصد للمهمَّات البواكير ما ينيف عن عشرين ألف غرارة، فحملت إلى الأمصار"[1].

ومهما يكن من كثرة الشهادات والوثائق التاريخية التي تشهد بأهميّة مكانة الكرك في النواحي المختلفة في العصر المملوكي، فإنَّ أقواها وألصقها بالضمير الإنساني ما جاء في رسالة تقليد لنيابتها، جاء منها: "ولمَّا كانت قلعة الكرك المحروسة هي هذه العقيلة التي كم ردَّت آمال الملوك راغمة، ومنعت أهواء النُّفوس في الكرى الأجفان الحالمة، وكان فلان ممن ينهض مثلُه بحفظ مثلها، يعلم أنّ أمانتها التي لا تحملها الجبال قد أُودعت منه إلى كُفئها، ووضعت كفايتها في أهلها، فهو سيفنا الذي يحوطها ذُبابه، ووليُّنا الذي من طمح بصرُه إلى أُفُق حلَّه أحرقه شهابه" [2].

فالنصَّ يشيد بمكانة الكرك مكاناً وإنساناً، فهذه القلعة عصيَّة على كل طامع، فكم من ملوك خيَّبت آمالهم ودحرتهم، ولم يتمكَّنوا من إخضاعها والاستيلاء عليها، لا بل حرمت النُّفوس من تحقيق الأماني والأحلام في اليقظة والنوم.

ولذا جاء في رسالة تقليد أخرى "واحفظها بقوة الله وتحفَّظ بأسوارها المنيعة"[3]، ولا يخفى ما في الوصية من تأكيد أهميَّتها، وخصِّها بالرِّعاية وبيان منعتها في النواحي التحصينيّة العسكريّة؛ ولذا لجأ إليها بعض السَّلاطين في أوقات الشِّدَّة من أجل حماية أنفسهم والحفاظ على سلطتهم كالسُّلطان الظَّاهر بيبرس وأبنائه، والسُّلطان النَّاصر محمَّد وابنه السُّلطان أحمد، والسُّلطان الظاهر برقوق[4].

(1) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمّة، تقديم وتعليق ياسر سيد صالحين، مكتبة الآداب، القاهرة، ص28-29.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، مصدر سابق، ج12، ص218.

(3) المصدر نفسه، ج12، ص221.

(4) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (911هـ/1505م): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، حقَّقه علي محمَّد عمر، مكتبة الخانجي – القاهرة، ط1، 1428هـ/2007م، ج2، ص105.

ومن رسالة تقليد بنيابة الكرك قُلِّد فيها النَّاصر أحمد بن محمَّد: " وببركة هذا القصد يتمُّ لنا فيه المراد، ويعُمُّ هذه المملكة النفع بهذا الإفراد، فإنّها معهد النصر والفتح، ومشهد الوَفر والمنح، ومصعد العزِّ الذي لمّا وطِئنا صرحه تدكدك للعدا كلُّ صـــرح، وتملَّك للهدى كلُّ سرح، ونَشِقنا بها لقرب المزار من أطيب طَيبة أعظم نفح "[1].

وهذا النصّ يدلُّ على عظم شأن الكرك وتميُّزها عن غيرها مـــن النيابـــات المملوكيّة كما أُشير سابقاً، ويُلمس من هذا النصّ رغبة السُّلطان النَّاصر محمَّـــد فـــي تولية ابنه هذا المنصب؛ ليكون معاوناً له وساعداً يقوى به على عاديات الزَّمن، فذكر ابن خلدون هذا الأمل والمطمح في تاريخه، قائلاً: "ولمَّا استفحل مُلك السُّلطان النَّاصر، واستمرَّ وكثر ولده، طمحت نفسه إلى ترشيح ولده لتقرَّ عينه بملكهم، فبعـــث كبيـــرهم أحمد إلى قلعة الكرك سنة ست وعشرين، ورتَّب الأمراء المقيمين بوظائف الـــسُّلطان، فسار إلى الكرك، وأقام بها أربع سنين ممتَّعاً بالملك والدولة، وأبوه قرير العين بإمارته في حياته"[2].

وتزهو الكرك وتفخر على غيرها من الممالك باختصاصها بطريـــق الحـــج، وتوسُّطها بين القاهرة والدِّيار المقدَّسة، فجاء من رسالة فنيّة " وفخار هـــذه المملكـــة المباركة لاختصاصها بالحرمين الشَّريفين عليها طلاوة وسعادة، وفيها روح..." [3].

واختصاصها بهذه الميزة جعلها محطَّ نظر السَّلاطين المماليك أمثال الظَّـــاهر بيبرس، والنَّاصر محمَّد وغيرهم، فقد أولوها اهتماماً، وقاموا بزيارتها مرَّات عدّة، فقد تمَّ تحسين طريق العقبة، وعندما حجَّ السُّلطان النَّاصر محمَّد أُجريتْ تحـــسينات لهـــذه

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، مصدر سابق، ج12، ص223.

(2) ابن خلدون، عبد الرحمن (808هـــ/1406م): تاريخ ابن خلدون، دار الكتب العلميـــة، بيـــروت، ط1، 1413هـــ/1992م، ج5، ص516.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، مصدر سابق، ج12، ص224.

الطريق، ومُهِّدت وأُزيل ما فيها من صخور[1]، وقد جاء هذا الخبر في بعض مصادر العصر المملوكي.*

وهذه الأخبار كلّها تؤكِّد الأهميّة العظمى لمملكة الكرك من النواحي الدينية، كما تشكِّل هذه البلاد الطريق المؤدِّي إلى الدِّيار المقدَّسة، فلهذا أولى السَّلاطين المماليك الكرك ومسالكها عناية فائقة، وانعكست هذه العناية على السَّاحة الأدبيّة من خلال رسائل التقاليد التي تصدر عن ديوان الإنشاء المملوكي، فهذه الرسائل تحمل الأغراض الموضوعيّة، فضلاً عن غرضها الفني المتمثِّل في أسلوب الكتَّاب الجانح نحو أدبيّة النصّ النثريّ، ونقله ناحية المنظوم، كما قال ابن خلدون: إنَّ المتأخِّرين استعملوا أساليب الشِّعر وموازينه في المنثور، من كثرة الأسجاع والتزام التقفية، وتقديم النسيب بين يدي الأغراض، وصار هذا المنثور إذا تأمَّلته من باب الشِّعر وفنِّه، ولم يفترقا إلاَّ في الوزن[2].

والمتأمِّل لهذه التقاليد والاقتباسات التي أخذت منها يدرك ذلك الأمر، وسيأتي البحث على التمثيل على هذه القضية من خلال رسالة شكوى كُتبت على لسان قلعة الكرك، وهذه الرِّسالة تجمع بين النثر والشعر، فضلاً عن أدبيّة عباراتها وقوّة سبكها.

---

(1) البخيت: مملكة الكرك، مرجع سابق، ص122.

* ذكر صاحب الذهب المسبوك، أنَّه عندما حجَّ السُّلطان النَّاصر 719هـ/1340هـ، "مُهِّدت عقبة أيلة من الصُّخور، ووسِّع مضيقها بعد ما كان مسلكه صعباً" ، المقريزي: الذهب المسبوك في ذكر من حجَّ من السلاطين والملوك، حقَّقه د. جمال الدين الشيَّال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1420هـ/2000م، ص132.

وورد الخبر في حُسن المحاضرة في السنة ذاتها، قائلاً: "ومهِّد ما كان في عقبة إيلياء من الصُّخور، ووسِّع طريقها" السيوطي: حسن المحاضرة، مصدر سابق، ج2، ص100.

(2) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت، ص628.

وتُظهر هذه الرسالة مدى التنافس بين كتّاب الديوان حول رئاسة ديوان إنشائها، فيجدر بنا أن نعرِّج على هذه القضيّة من خلال التعريض الذي كتبه الأديب القاضي كمال الدِّين بن النحَّاس*، إذْ أنشأ رسالة فنيّة على صورة رسالة شكوى على لسان قلعتها تطلب من نائبها أن يكون ابن النحّاس موقعها في ديوان إنشائها، وقد حملت هذه الرسالة روح الفكاهة – من خلال التعريض بموقعها النصراني- وهذا دليل على روح التسامح، والعيش المشترك حتى في العصر المملوكي- إذْ جعل من هذه الشكوى دعوة لعزل ذلك الموقِّع وإحلال كاتب الرسالة مكانه ، فمن هذه الرسالة: "المملوكة المملكة الكركية الشَّاكي على لسان حالها أكبر مصيبة وأعظم بلية:

تقبَّل الأرض لدى مالك ساسَ الأقاليم برأي مصيبِ
وتشتكي جَوْرَ الزَّمان الذي قد خصَّها دون الورَى بالصَّليبِ

تنهي أنَّها من أعزِّ الممالك، وأصعب المسالك، قلعتها منيعة، وهضبتها رفيعة، ورقعتها وسيعة، وذروتها باسقة، وقُلّتها شاهقة، وقد اتَّخذت لها الغمام لثاماً، وزرقة السَّماء وشاماً، يكاد ساكنها يرِد من المجرّة نهرها، ويجالس من النُّجوم زهرها..." (1).

وعلى غرابة هذا الموضوع الذي طرقه معرِّضاً لا مصرِّحاً، ومتقنِّعاً بلسان قلعتها الشَّاكي؛ نجد فيها وصفاً لقلعة الكرك يفوق وصف المؤرِّخين والجغرافيين السالف ذكرهم، فقد أضفى عليها من سمات المنعة والتحصين الجمّ الغفير، وقد استخدم

* القاضي كمال الدين بن النحَّاس محمَّد بن محمَّد بن محمَّد الكاتب أمين الدين، مولده في سنة إحدى وثمانين ووفاته سنة سبع وخمسين وسبعمئة، أتقن القلمين إنشاءً وحساباً وتجاوز غاية الفنين، وكان فيه رئاسة تشرَّبها قلبه قديماً، توجَّه مع أحد الأمراء إلى نيابة الكرك ولكنَّ وفاته كانت في دمشق.
انظر: الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، مصدر سابق، ج5، ص247-249.

(1) المصدر نفسه ، ج5، ص249-250.

الأسلوب الأدبي الذي يمزج بين اللون الفني والغرض الطلبي، وحشد فيها صوراً أدبيّة تناسب تضاريس القلعة، إذْ خصَّها بالصور العلويّة، فالصورة الأولى صورة الغمام الذي اتَّخذته لثاماً، وهو يشير هنا إلى رفعة هذه القلعة وعلیائها، وهي جميلة وتزدهي بوشمها السماوي، وفي ذلك حصانة وأصالة، وفي لفتة كريمة من الأديب إلى أهلها، ذكر أنَّهم من العزِّ والمجد بمكان، فرسم لوحة جميلة، إذْ يرِد أهلها نهر المجرّة، وفي ذلك ما فيه من مدح أهل هذه المملكة، وهكذا تتوالى صور الكرك في هذه الرسالة الفنية.

ثمَّ ينتقل الأديب إلى ذكر محاسن لهذه المملكة تؤيِّد ما جاء في كتب المؤرِّخين من أهميَّتها الدينيّة السياسيّة: "وهي دار السَّلطنة الشريفة، ومحل الأمن من الخيفة، وقد جمعت بين قرب الأرض المقدَّسة والشَّام، ومجاورة الأنبياء والبلد الحرام..." [1].

إنَّ في هذا الاقتباس دليلاً قوياً على ما جاء في كتب المؤرِّخين من أهميّة الكرك في النواحي السياسيّة والدينيّة، فهي مجاورة للأرض المباركة بيت المقدس، وطريق الحجّ للدِّيار المقدَّسة، كما تبيِّن الرسالة أهميَّتها في النواحي السياسيّة، إذْ هي دار السَّلطنة الشريفة، وفي ذلك إشارة إلى أهميَّتها عند السَّلاطين المماليك، خاصة النَّاصر محمَّد وابنه النَّاصر أحمد، وقد عاصرهما الكاتب معاً.

وبعد هذا التقديم الذي يليق بمكانة الكرك، يبدي الكاتب غرض الشكوى معرِّضاً بموقِّع ديوان إنشائها قائلاً: "ومع ذلك كلّه لسان إنشائها أغلف، وقلم توقيعها من الحجارة أجلف"[2]، وفي ذلك إشارة واضحة يلمح المتلقِّي غرض الرسالة من خلالها، فقد عرَّض الكاتب بالموقِّع من خلال ذكر صفات تخصّه وتميِّزه عن غيره من

(1) الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، مصدر سابق، ج5، 250.
(2) المصدر نفسه، ج5، ص250.

المسلمين، ولا شكَّ أنَّ في هذا التعريض ما يسوّغ قبوله في العصر المملوكي، وعلى الرغم من ذلك فإنَّ هذا يؤيِّد القول بالتسامح والعيش المشترك بين المسلمين والنصارى في العصر المملوكي؛ لأنَّ كاتب النص لم يصرِّح بل لمَّح إلى ذلك تلميحاً، وجعل الشكوى على لسان القلعة لا على لسانه، فقد أنطق الحجر والجماد، وحمَّله مسؤوليّة هذه الشكوى.

وتُظهر الرِّسالة مدى المعاناة التي واجهتها الكرك من جرَّاء ذلك قائلاً: "وكانت صابرة على البلوى ومحتسبة عند الله ما تقاسيه من هذه الشكوى، لعدم ما تنهي إليه حالها وتبثّ مقالها، إلى أن أعزَّها الله بعزِّ الدِّين، ومنحها منه بالرأي الصَّائب والفتح المبين:

أميرٌ له حزمٌ وعزمٌ وفطنةٌ ورأي مجيد العقد والحلِّ صائبه
تردَّى بثوبِ العدلِ والباس والندى كما قال من قد أحكمته تجاربه
بصيرٌ بأعقابِ الأمورِ كأنَّما تغازله من كلِّ أمرٍ عواقبه

فلمَّا حلَّ ساحتها، وأعاد لها بعد التعب راحتها، وأزال عنها كل بوس، وأضحك وجوه أملها العبوس، حضر لديه منشئ هذه القصة، ومزيل – إن شاء الله- هذه الغُصَّة، عبد الأبواب الشَّريفة، محمَّد بن محمَّد بن خليفة، ممَّن غذِّي بالإسلام، ونُسب إلى أنصار النبيّ عليه السَّلام، وهي تسأل توليته ديوان إنشائها، وإنْ لم يكن لذلك أهلاً، لكنَّه أحقّ من هذا الأقلف وأولى"[1] .

وبعد شرح حالها وبيان مظاهر البلوى، يخلُص الكاتب إلى مدح نائبها الذي لم يفصح عن اسمه، فقد مجَّده كثيراً، وبثَّ له هذه الشَّكوى على لسان القلعة، ثمَّ صرَّح عن غرض هذه الشَّكوى بالطلب منه بتوليته أمر توقيعها في ديوان الإنشاء.

(1) الصفدي، أعيان العصر، ج5، ص 250.

وقد ختم الكاتب الشَّكوى قائلاً على لسان قلعتها: "وقد أرسلت المملوكة هـذه القصة والسَّيل بالغ الزبى، وخفيفُ بلِله قد عمَّ أعالي الربا، فإنْ أصيب فاللوم عـداكم، وإلاَّ أنشدت (فعلى علاكم) أنهت ذلك إن شاء الله تعالى"[1].

فمن خلال النَّظر في هذه الرِّسالة، يدرك المتلقِّي شعرية * الـنصّ النثـري الذي أشار إليه ابن خلدون آنفاً، فجمال الأسلوب، ورشاقة العبارة، والمراوحـة بـين النثر والشعر في الرسالة يعزِّز ما ذهب إليه ابن خلدون، كما أنَّ استخدام ألوان البديع اللفظيّة كالسجع الذي التزمته الرِّسالة، والجناس والموازنة ...الخ، أكسبَ الرِّسالة صفة الأدبيّة، وللمتلقِّي أن يتأمَّل الاقتباسات السَّالفة ليتبيَّن له حقيقة ما يطرحه البحث، وقـد أسهمت هذه الحُلى البديعيّة في شعرية الرسائل الفنية، فكما أنَّ الشعريّة أولت الـشعر عناية خاصة في لغته وصوره وأخيلته، وخيوط التراث المهاجرة فيـه؛ فإنَّهـا كـذلك شملت الأعمال النثريّة التي اهتمَّت بالخيال الأدبيّ، والانزيـاح اللغـويّ، وتوظيـف الموروث الأدبي، " فالفرق بين الشعر وغيره ليس مجرَّد فرق بين نظم ونثر؛ لأنَّ هذا مجرَّد فرق في الصناعة، والفرق الحقيقي هو بين التآليف التي تقلِّد والتي لا تقلِّد، وكلا هذين قد يكون موزوناً أو غير موزون، وهكذا كان أرسطو أوَّل ناقدٍ استطاع أن يرينا

(1) المصدر نفسه، ج5/ ص251.

* يرى كوين أنَّ الشعرية علم موضوعه الشعر، بينما يصفها عبد الله الغذامي بأنَّها تعنـي مـصطلحاً جامعاً يصف اللغة الأدبية في النثر والشعر.

كوين، جون: النظرية الشعرية (بناء لغة الشعر)، ترجمـة وتقـديم وتعليـق أحمـد درويـش، ط2، 1421هـ/2000م، دار غريب للطباعة، القاهرة، ج1، ص29.

الغذامي، عبدالله: الخطيئة والتكفير (من البنيوية إلى التشريحية)، ط1، 1405هـ/1985م، النـادي الأدبي الثقافي، جدة، ص19.

أنَّ الشروط الأساسيّة للشعر قد تكون في الكلام المنثور، وبالعكس أنَّ مجـرَّد الـنظم ليس كافياً لأنْ يجعل الكلام شعراً"[1].

وعلى أيّة حال فإنَّ الشهاب محمود الحلبي نوّه في كتابه "حسن التوسل إلـى صناعة الترسل" إلى قضية كيفيّة الاستفادة من الموروثات الدينية والأدبية المهاجرة في النَّصّ الأدبي وذلك ظاهرٌ من قوله: "وأمّا الحلّ: فهو باب يتَّسع على المجيـد مجالـه، وتتصرَّف في كلام العارف به روّيته وارتجاله، وملاك أمر المتعدِّي له أن يكون كثيراً لحفظ الأحاديث النبويّة والآثار والأمثال والأشعار؛ لينفق منها وقت الاحتيـاج إليهـا، وكيفيّة الحلّ أن تتوخّى هدم البيت المنظوم، وحل فرائده من سلكه ثم يُرتب تلك الفرائد وما شابهها ترتيب متمكِّن، لم يحصره الوزن، ولا اضطرته القافيـة، ويبرزهـا فـي أحسن سلك، وأجمل قالب، وأصحّ سبك، ويكملها بما يناسبها من أنواع البديع إذا أمكن ذلك، من غير كلفة"[2]، فمن ينعم النظر في النص المقتبس يدرك مدى فهمـه لقـضية التناصيّة، التي هي مورد من موارد شعرية النص الأدبي، فالحلبي وهو مـن أعـلام الرسالة الفنية في العصر المملوكي، يلفت النظر إلى كيفية التعامل مع الـنص القـديم والنص الحديث؛ لا بل يشير صراحة إلى كيفية الاستفادة من الموروث داخـل نـسيج العمل الأدبي النثري.

ولا يخفى ما في عبارة الحلبي " ووليّنا الذي مَن طمح بصره إلى أُفقٍ حلَّـه، أحرقه شهابه "[3] التي وردت في رسالة تقليد بنيابة الكرك، من تنـاصٍّ مـع الآيـة

(1) كرومبي: لاسل أبر: قواعد النقد الأدبي، ترجمة د. محمَّد عوض محمَّـد، دار الـشؤون الثقافيـة العامة، ط2، بغداد، 1986م، ص91.

(2) الحلبي، شهاب الدين محمود (725هـ/1325م): حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقيق أكـرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، العراق، 1980م، ص325-326.

(3) القلقشندي : صبح الأعشى ، 218/12

الكريمة* ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ وفي عبارة " ومدينته التي لم يُخلق مثلها في البلاد "[1] إشارة واضحة للآية الكريمة ** ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ ﴾.

وفي حقل الشعر تجد " وسرى ذكرنا في الشرق والغرب، وللحداة به أطرب صدح"[2]

فالعبارة قد تشي بقول المتنبي:*

فسار به من لا يسير مشمِّراً وغنّى به مَن لا يغنِّي مغرِّداً

وفي حقل توظيف الأمثال، تجد عبارة " وقد أرسلت المملوكة هذه القصة والسيل بالغ الزبى، وخفيف بلِه قد عمَّ أعالي الربا"[3] فالمثل" بلغ السيل الزبى "** واضح المعالم في هذا النّصِّ، والأمثلة كثيرة على توظيف الموروث في هذه الرسائل.

ومهما يكن فإنَّ شعرية التناصِّ ظلت لافتة للنظر في الرسالة الفنيّة في العصر المملوكي، كما أنَّ الالتزام بالسجع أسهم في شعريّتها من خلال الموسيقى، والتلوين الصوتي، وكثرة المحسنات البديعيّة اللفظية والمعنوية، ويمكن التمثيل على

---

* سورة الصافات ، آية 10

(1) القلقشندي : صبح الأعشى ، 220/12

** سورة الفجر، آية 7و8

(2) القلقشندي : صبح الأعشى ، 12/ 223 - 224

* المتنبّي، أبو الطيّب أحمد بن الحسين (354هـ/965م)، (د.ت)، الديوان بشرح العكبري، طبعه وصحّحه ووضع فهارسه مصطفى السقّا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الأخيرة،1391هـ / 1971م، ج1/ص291.

(3) الصفدي : أعيان العصر، 5/ 251

** الميداني ، أبو الفضل أحمد النيسابوري (ت 518هـ/ 1124م) : مجمع الأمثال، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط2، 1407هـ/1987م، ج1، ص158.

ذلك من خلال تأمّل هذه الفقرة: " والأمراء والجند فهم جناح النجاح، وصفاح الصّفاح، فاعتمد أحوالهم بالصلاح، وأردْ فيهم ما استطعت الإصلاح، والخيّالة والرجالة الذين يُحمى بهم مصون الحصون أن يستباح، فالحظْ أمورهم بعين فكرك في كلِّ مساءٍ وصباح، فمن نهض في الخدمة تعيَّن من النعمة أن يزاد ومن قصر في العزم قضى الحزم أن يزاح،..."[1].

والناظر في هذه الفقرة يجدها تزخر بالفنون البديعيّة، تلك التي تقرّب المنثور من المنظوم، فالشعريّة واضحة المعالم من خلال موسيقى الفقرة الخارجي والداخلي، فالموسيقى الخارجيّة تمثّلت في السجعات المعتمدة حرف الحاء، ذلك الصوت الاحتكاكي المهموس ،[2] في حين تمثّلت الموسيقى الداخليّة في الجناسات مثل (جناح النجاح، وصفاح الصفاح، ...) وفي الفقرة إشارات لنصوص غائبة، ففي عبارة (فمن نهض في الخدمة تعيّن من النعمة أن يزاد) تناصٌّ مع الآية الكريمة * ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ وتلحظ في عبارة (ومن قصّر في العزم قضى الحزم أن يزاح) تناصّاً من قول أبي تمّام :**

فَقَسَا لتزدجروا ومن يكُ حازماً فليقسُ أحياناً وحيناً يرحمُ

فالمتأمّل للرسائل في العصر المملوكي بصورة عامة، وتلك التي جاءت تصف الكرك وحصنه في ذلك العصر، يجدها تفيض بوصف الطبيعة الصامتة والصائتة، في ثوب من العبارات والتراكيب الأدبيّة التي تقرِّبها من القصائد الشعريّة،

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 12/ 227.

(2) انظر الخليل، عبدالقادر مرعي: المصطلح الصوتي عند علماء العربيّة القدماء في ضوء علم اللغة المعاصر، منشورات جامعة مؤتة، ط1، 1993م، ص68.

* سورة إبراهيم ، آية 7.

** أبو تمام، حبيب بن أوس الطَّائي (231هـ/845م): ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق عبده عزام ، ط2 (د.ت)، دار المعارف، القاهرة، ج3/ ص200.

فهي لوحات فنيّة، يجد فيها المتلقِّي نفسه أمام رسَّام حاذق يجيد صنعته من إبراز الألوان والتضاريس، فقد غلِّفت هذه الرسائل بالصور الأدبيّة في إطار من الزخرفة اللفظيّة، وجلبت جوّاً غامراً من الحركة والألوان والأصوات، وتداخلت هذه العناصر وتمازجت، وشكَّلت لوحة فنيّة فريدة، أسهمت في زيادة شاعريّتها شاعريّة الكتَّاب في العصر المملوكي الذين قرَّبوا فنّ الترسُّل من فنّ الشعر كما ذكر الناقد المؤرّخ ابن خلدون في مقدِّمته، من أنَّ المتأخِّرين من الكتَّاب أضفوا صفات المنظوم على المنثور من كثرة الأسجاع والتقفية [1].

الخاتمة:

إنَّ اهتمام السلاطين بمملكة الكرك في العهد المملوكي كان اهتماماً كبيراً، فقد بيَّنت الدِّراسة من خلال ما دوَّنه المؤرِّخون والجغرافيون والرَّحالة والأدباء وهذه المملكة، أنَّها أخذت حيِّزاً كبيراً من عناية السَّلاطين والأُمراء، وهذا الاهتمام انعكس على رؤية الأدباء والمؤرِّخين، فظهرت صورة الكرك في أبهى الحلل وأجملها، فاعتنى المؤرِّخون بالجانب الفكري والسياسي والاقتصادي لهذه المملكة، في حين اهتمَّ الجغرافيون بالجوانب التضاريسيّة المهمّة التي جعلت من هذه المملكة قلعة الصُّمود وحصن الأمان، وأظهر الرحَّالة إعجابهم بسحر المكان والإنسان، وجمع الأدباء كل هذه المناقب والخصال والميزات لهذه المملكة من خلال الرِّسالة الفنية، وخاصة التقاليد؛ تلك الرسائل التي تأخذ الجانب الرسمي وتنحو نحو الجانب الفني التعبيري.

ولهذا تعدَّدت صور الكرك في هذه الرسائل، فمن هذه الصور اللوحات العلويّة التي تبرز عناصر العلويّات كالكواكب، والأجرام، والمجرَّات، والسَّحاب، وقد سبق التمثيل على هذه اللوحة، وهي توحي بعلوّ مكانة المملكة الكركية في النواحي المكانية والإنسانية، وقد تكون الصورة باطنية، فتظهر ملامح الصور من خلال

(1) انظر: ابن خلدون: المقدّمة، ص628.

الضمير، وبطون الأودية والمستجنة...، وقد مُثِّل على هذه الصور في مكانهـــا مـــن البحث، وهذه اللوحات تشير إلى أهميّة الكرك من النواحي العسكرية والتحصينية.

ومهما يكن، فإنَّ الرِّسائل الفنيّة تُظهر الكرك في إطار من الاهتمام والرعاية من قبـــل السلاطين، فقد اتَّخذوها حصناً يقيهم عاديات الزَّمن، ومستودعاً لأمـــوالهم وغلالهـــم، ومربىً ومهداً لأبنائهم من أجل تربيتهم تربية سليمة، وميداناً لتدريبهم على الفروســيّة والصَّيد.

قائمة المصادر والمراجع

- أنيس، إبراهيم وآخرون، **المعجم الوسيط**، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1392هـ/1972م.
- البخيت، محمَّد عدنان: **مملكة الكرك في العهد المملوكي**، مطبعة السفير، الناشر وزارة الثقافة، عمَّان، 1430هـ/2009م.
- ابن بطوطة، شمس الدِّين أبو عبدالله اللواتي (779هـ/1377م): **رحلة ابن بطوطة**، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، 1386هـ/1967م.
- ابن تغرّي بردي، جمال الدِّين أبو المحاسن يوسف (874هـ/1469م): **النجوم الزاهرة في** ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصوَّرة عن نسخة دار الكتب المصرية، القاهرة، ج10.
- أبو تمام، حبيب بن أوس الطَّائي (231هـ/845م): ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق عبده عزام، ط2 (د.ت)، دار المعارف- القاهرة.
- الحلبي، شهاب الدين محمود (725هـ/1325م): **حسن التوسل إلى صناعة الترسل**، تحقيق أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، العراق، 1980م
- الحميري، محمَّد عبد المنعم: **الرَّوض المعطار في خبر الأقطار**، حقَّقه الدكتور إحسان عبَّاس، مكتبة لبنان.
- الخطيمي، أحمد: **بلدانيات الأردن في كتب الرحَّالة والجغرافيين**، ط1، 1427هـ/2006م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن (808هـ/1406م): **تاريخ ابن خلدون**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ/1992م، ج5.
- الخليل، عبدالقادر مرعي: **المصطلح الصوتي عند علماء العربيّة القدماء في ضوء علم اللغة المعاصر**، منشورات جامعة مؤتة، ط1، 1993م.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (911هـ/1505م): **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، حقَّقه علي محمَّد عمر، مكتبة الخانجي – القاهرة، ط1، 1428هـ/2007م، ج2.
- شيخ الربوة، محمَّد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي، (727هـ/1327م): **نخبة الدَّهر في عجائب البر والبحر**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م.
- الصفدي، صلاح الدِّين خليل بن أيبك (764هـ/1362م): **أعيان العصر وأعوان النصر**، حقَّقه علي أبو زيد وآخرون، ط1، دار الفكر، دمشق، 1418هـ/1998م، ج1.
- عبد الظاهر، محيي الدين (692هـ/1292م):
- **تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور**، حقَّقه مراد كامل، ط1، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1381هـ/1961م.
- **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، حقَّقه عبد العزيز الخويطر، ط1، الرياض، 1376هـ/1976م.
- العسقلاني، أحمد بن حجر (852هـ/1448م): **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، حقَّقه محمَّد سيد جاد الحق، دار الكتب، ج4.
- العمري، أحمد بن يحيى (749هـ/1348م): **التعريف بالمصطلح الشَّريف**، تحقيق ودراسة سمير الدروبي، ط1، (1413هـ/1992م)، منشورات جامعة مؤتة.
- الغذامي، عبدالله: **الخطيئة والتكفير (من البنيوية إلى التشريحية)**، ط1، 1405هـ/1985م، النادي الأدبي الثقافي، جدة.
- غوانمة، يوسف:
- **التاريخ السياسي لشرقي الأردن في العصر المملوكي الأول (المماليك البحرية)**، دار الفكر، عمَّان، ط2، 1402هـ/1982م.
- **الكرك في عصرها الذهبي**، مطبعة القيروان، عمَّان، 1428هـ/2007م.

- أبو الفداء، الملك المؤيّد إسماعيل بن علي (732هـ/1331م): **تقويم البلدان**، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- القلقشندي، أحمد بن علي (821هـ/1418م): **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، تعليق محمَّد حسين شمس الدِّين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- كرومبي: لاسل أبر: **قواعد النقد الأدبي**، ترجمة محمَّد عوض محمَّد، دار الشؤون الثقافية العامة، ط2، بغداد، 1986م
- كوين، جون: **النظرية الشعرية (بناء لغة الشعر)**، ترجمة وتقديم وتعليق أحمد درويش، ط2، 1421هـ/2000م، دار غريب للطباعة، القاهرة، ج1.
- المتنبّي، أبو الطيّب أحمد بن الحسين (354هـ/965م)ن (د.ت)، **الديوان بشرح العكبري**، طبعه وصحّحه ووضع فهارسه مصطفى السقّا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الأخيرة،1391هـ / 1971مـ .
- المقريزي، أحمد بن علي (845هـ/1441م):
- **إغاثة الأمة بكشف الغمّة**، تقديم وتعليق ياسر سيد صالحين، مكتبة الآداب، القاهرة، ص28-29.
- **الذهب المسبوك في ذكر من حجَّ من السلاطين والملوك**، حقَّقه جمال الدين الشيَّال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1420هـ/2000م.
- **السلوك لمعرفة دول الملوك**، حقَّقه محمَّد مصطفى زيادة، مكتبة دار الكتب المصرية، القسم الثاني، الجزء الثاني.
- الميداني، أبو الفضل أحمد النيسابوري (ت 518هـ/ 1124مـ) : **مجمع الأمثال**، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت- لبنان، ط2 ، 1407هـ/1987م.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2011/2/28